الحياة الطيّبة
السنة 20
العدد 35
خريف 2016 م
ملف العدد

قبسات من المنظور القرآنيّ في النظر الاستشرافيّ
-أهمّيّة معرفة السّنن في حركيّة التاريخ-

الدكتور محمد علا[1]

خلاصة المقالة:

تحاول هذه المقالة مقاربة موضوع استشراف المستقبل في ضوء الإشارات القرآنيّة المتعلقة بالسّنن الإلهيّة وحركيّتها في التاريخ والاجتماع البشريّ. كما تبيّن أنّ استشراف التغيّر الحضاريّ القادم يفرض استحضار منظومة نسقيّة متكاملة ترتبط بمحدّدات وركائز تحتلّ فيه السنن الإلهيّة بؤرة مركزيّة، إلى جانب الوعي بالشروط الموضوعيّة للواقع، وتجديد آليّات النظر والتفكير، وتقوية البحث العلميّ، وإعطاء الجانب الروحيّ والقيميّ المكانة اللازمة في ظلّ واقع حضارة متغلّبة مادّيًّا أفرزت إشكالات عالميّة على مستوى الكينونة الآدميّة والأسرة والمجتمع والبيئة والكون؛ ما يمهّد لبروز مساهمات مراكز حضاريّة جديدة تجعل من التدافع التعاونيّ منهجًا لتدبير شؤون الكون؛ بدل الصراع التناحريّ القائم في عدد من بلاد المعمورة!

مصطلحات مفتاحيّة:

القرآن، الاجتماع الإنسانيّ، التاريخ، المستقبل، الاستشراف، السّنن الإلهيّة، حركيّة التاريخ، التغيّر الحضاريّ، التدافع .

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

مقدّمة:

لا شكّ في أنّ من ميّزات الاشتغال على الواجهة الفكريّة: انفتاحها على أنساق معرفيّة مختلفة، وارتباطها بعلائق متداخلة ومركّبة؛ يتفاعل فيها العقل والخبرة البشريّة مع الواقع المتغيّر والمتجدّد عبر تراكم التجارب التاريخيّة. غير أنّ الانطلاق من مرجعيّة محدّدة وفق أهداف واضحة، في الفضاء الاستخلافيّ الموهوب، يعبّد طريق الاشتغال، ويسهّل عمليّات التفكيك والتحليل والتركيب واقتراح سبل التنفيذ والتنزيل أثناء مواجهة إشكاليّة معيّنة، بعد رسم الأولويّات والمنطلقات، في ضوء تحدّيات هذا الواقع وإكراهاته، وما يتوافر فيه من فرص متاحة وممكنة مرحليًّا؛ عاجلة كانت أم آجلة.

تنطلق هذه المقالة من مسلّمة فكريّة؛ مفادها: أنّ «التحيّز أمر حتميّ»[1]، وتفترض أنّ مناهج البحث خاضعة بالضرورة لخلفيّات مرجعيّة وقناعات قبليّة تدفع بالبحث العلميّ إلى أن يسلك مسارًا معيّنًا دون آخر. ومن ثمّ، فإنّ استشراف المستقبل من وجهة النظرة الإسلاميّة سيكون محكومًا -بالضرورة- بخصوصيّات هذه النظرة؛ وما تمتلكه من فلسفة وجوديّة حول الكون والحياة والغائية والمصير، وسيكون متميّزًا عن غيره بميّزات الرؤية الحضارية الكلّيّة للوجود؛ ومنها: مركزيّة الدين والعقيدة وتكريم الإنسان، ومركزيّة القيم والأخلاق في مختلف مجالات الحياة. في حين أنّ النظر الاستشرافيّ الغربيّ يقف وراءه نظريّات وموجّهات مادّيّة غربيّة لا تصلح أن تكون في كثير من منطلقاتها ومظاهرها مجالًا للقدوة والاحتذاء؛ على الرغم من السبق المعرفيّ الغربيّ في هذا الحقل المعرفيّ المهمّ.

وأمّا الحالة موضوع الدراسة في ضوء هذا الأنموذج؛ فتروم البحث في جانب من جوانب النظر الاستشرافيّ نحو المستقبل؛ من خلال التعرّف

---

(1) انظر: المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، لا. ط، لا. م، دار الهلال، 2000م، ص48.

على بعض المحدّدات المنهاجيّة التي دلّت عليها نصوص الوحي، والتي تشكّل منارات هادية في الوعي الكلّيّ للحياة وفي التخطيط للمستقبل واكتشاف معالمه والوعي بمتغيّراته.

والأسئلة التي تعالجها المقالة تدور حول الإجابة عن الإشكالات الآتية: ما هي أهمّ المعطيات المنهجيّة التي تتوافر عليها الرؤية القرآنيّة لاستشراف المستقبل؟ وما هو موقع العلم بالسّنن الإلهيّة ودورها في حركة التاريخ عمومًا؟ وبأيّ معنى يمكن اعتبار الإرادة الإنسانيّة هي الفاعل المركزيّ في صنع المستقبل؟

أولًا: مقدّمات عامّة:

قبل الشروع في مقاربة الإشكالات السابقة، أشير إلى بعض المقدّمات الممهِّدة؛ وهي:

1. إنّ استشراف المستقبل هو اجتهاد بشريّ منظَّم، يتوخّى الوعي بجملة متطلّبات الواقع وحاجيّات المستقبل القريب ومتغيّراته المحتملة؛ بما يدفع إلى حسن التنظيم وتوفير المعطيات والمعلومات لواضعي البرامج والمخطّطات الاستراتيجيّة لاتّخاذ القرارات الملائمة في الوقت المناسب؛ بغية الاقتراب ما أمكن من البديل الأفضل للمستقبل. وهو أمر مطلوب ومحمود ودليل على وعي إنسانيّ راقي، يمكّن من المحافظة على المكتسبات والتخطيط لمواجهة الأزمات الحاصلة أو الممكن حصولها. وليس همّنا في هذه المقالة الخوض في الآليّات الإجرائيّة الجزئيّة للتنبّؤ بالاحتمالات الممكنة في مجال أو تخصّص معيّن، وإنّما محاولة الوقوف على بعض الموجِّهات الكبرى المبثوثة في الوحي والتي تمكّننا من فهم الوجود عامّة وفهم منهجيّة السيرورة التاريخيّة وقوانينها المتحكّمة.
2. من أهم ميّزات المنهجيّة الإسلاميّة ارتكازها على خطّين متوازيين؛

هما: خطّ الثبات الذي يضمّ القواعد الكلّيّة، والمقاصد العليا، والأصول المرجعيّة، والثوابت التأسيسيّة التي تُعدّ بوصلة للهداية والإرشاد، وخطّ المرونة والتغيّر الذي يضمن تفاعل النصوص مع الواقع المتغيّر. وهذا مجال واسع للكسب البشريّ لإبداع مناهج الإصلاح وتجديد وسائله. ولا شكّ في أنّ النظرة الاستشرافيّة للمستقبل ينبغي أن تهتدي بالضرورة بتلك الأصول، وتسترشد بتلك الضوابط التي هي جزء لا يتجزّأ من المنهجيّة الإسلاميّة ورؤيته الحضاريّة التي تنطلق من الكرامة الآدميّة وتبتغي الخير للإنسانيّة جمعاء.

3. التحدّي الذي تواجَه به الأمّة الإسلاميّة في كلّ عصر هو إيجاد جواب أو أجوبة للسؤال النهضويّ المركّب الآتي: ما مدى تفعيلها لإمكاناتها وقدراتها في ظلّ شروط عصرها وظروفه؟ وهل الأصل الاستعانة بهذه الإمكانات لصدّ الهجمات الخارجيّة وردّها؟ أم إنّ الأصل هو استثمارها وفق الرؤية الكلّيّة الاستخلافيّة للوحي لإعادة تشكيل الأمّة الشاهدة؟ وهل لا زالت إمكانات الأمّة المعنويّة مفعمة ومفعّلة بالوهج نفسه الذي ظهرت به في زمن النبوّة وما تلاها من قرون قريبة، أم إنّ سوء استثمار إمكاناتها المعنويّة نتج عنه بالضرورة خلل في توازن إمكاناتها المادّيّة؟

4. صحيح أنّ «الآخر» الحضاريّ كان له دور هامّ في المنزلق الفكريّ والحضاريّ الذي تتخبّط فيه الأمّة (صدمة الحداثة الأوروبيّة، التدخّلات المباشرة وغير المباشرة في الشأن الداخليّ للأمّة، والعولمة الجارفة)، وهذا أمر طبيعيّ؛ بحكم التفاعل البشريّ، والتدافع الحضاريّ، وسعي الآخر إلى إبراز وجوده وفرض هيمنته، ولكنّ الأمَرّ هو سهولة سقوط الفكر العربيّ والإسلاميّ، عن طريق نخبه وجماهيره، في هذا الشّرَك المشوَّك والمشوِّك، القائم على التبعيّة والركون، والخضوع للإملاءات والإذعان لها، ومعاداة الذات والتاريخ والتراث، فيُسقِط هذا الفكر على تجربته

الأمر نفسه الذي عانت منه تجارب حضاريّة أخرى في بنائها وتشييدها، ومن ثمّ ترسّخت لديه قناعة ضرورة نهج الطريق ذاته للنهوض والبناء والتقدّم؛ على الرغم من تباين السياق من مختلف جوانبه، وتوافره على إمكانات الهيمنة والاستيعاب والتجاوز لتسديد مسار الحضارة والتجربة الإنسانيّة بصفة عامّة. وفي قانون صعود الحضارات وأفولها دلالة على أنّ لكلّ أمّة نهضتها الخاصّة، وبصمتها المتميّزة في سُلّم الإنسانيّة، لا يمكن أن تكون نسخة طبق الأصل لنهضة أخرى؛ مهما تنوّعت عمليّات النقل، مستوردة كانت أو مفروضة، كما إنّ أقصى ما يمكن أن يحصل هو تأثيرات جانبيّة ستزول بزوال مسبّباتها.

وعندما يتعلّق الأمر بأمّة إسلاميّة لها خصائصها المميّزة؛ من عالميّة وختم وشهود، فضلًا عن إمكانات مادّيّة وبشريّة هائلة؛ فإنّ المسؤوليّة ستزداد أكثر؛ لأنّنا حينئذ سنكون أمام عمليّتين متكاملتين: استيعاب كلّ منجزات الحضارات المعاصرة، ثمّ دمجها في قالب يعطيه خاصّيّة العالميّة، ليجد الكلّ نفسه في هذه الحضارة المخرجة؛ لأنّها قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يُردّ.

5. تشكّل الطفرات النوعيّة في التقدّم البشريّ والتغيّر الحضاريّ تحدّيًا حقيقيًّا أمام الدراسات الاستشرافيّة، حين تحدث بشكل فجائيّ من دون أسباب ممهِّدة أو سابق إنذار، ويبقى الوعي المسبق بنقطة التحوّل (الطفرة) التاريخيّة هذه أمرًا مهمًّا؛ لأنّ ذلك بداية طريق البحث عن الاستقرار في خضمّ منعطف حضاريّ استثنائيّ وفق رؤى تتّخذ أشكالًا متعدّدة من الصراع أو التدافع الذي هو سُنّة الله تعالى في الكون. وإذا حدث أنْ كانت المنبّهات الخارجيّة هي سبب الوعي بالطفرة الحضاريّة؛ فلأنّ السيرورة الداخليّة للشعوب والحضارات تتّسم بالسلاسة والسكينة، ولا تنتفض على الذات؛ إلا إذا حصل الخناق والقهر والاستبداد. والناس في ميل دائم إلى الحياة الهادئة الآمنة المطمئنّة؛ مع غضّ النظر عن

الوسائل ومستوى العيش المألوف والمتعارف عليه. ولكنّ الوقوف على أنموذج آخر في العيش بأنماط جديدة ووسائل متطوّرة (مثال النمط الغربيّ) سبّب إزعاجًا للسكينة السائدة، والتي انقلبت إلى توتّر أمام أوهام واقع متخلّف، في مواجهة واقع أكثر إغواءً وإغراءً. وقد شكّلت لحظة الوعي بهذا الوضع بداية فترة انتقاليّة جديدة، وبداية تفاعلات حضاريّة بين نمط غربيّ يسعى إلى فرض هيمنته ومركزيّته، ونمط إسلاميّ يسعى بخطى حثيثة إلى بناء نهضة جديدة، والسعي نحو تحقيق عالميّة ثانية بإحياء روح التحدّي، وتجديد الفهم لعالميّة الإسلام وهيمنته وقدرته على التجديد والإبداع، ليس فقط من باب المسايرة وإيجاد الأحكام الفقهيّة للنوازل المستجدّة؛ وإنّما باقتراح بدائل متجاوِزة ومتقدّمة، وإيجاد حلول لمشكلات العصر المستعصية.

ثانيًا: منطلقات قرآنيّة وسؤال المستقبل:

إذا كان الوحي هو العمود الفقريّ للمرجعيّة الإسلاميّة؛ فإنّه مبنيّ على محدّدات منهاجيّة كبرى وقواعد كلّيّة تشكّل بوصلة للهداية والإرشاد؛ كما إنّه مؤسّس لمفاهيم جديدة، ومصحّح لمدلولات مفاهيم أخرى، ومن الضروري لكلّ متحدّث من داخل المرجعيّة العليا أن يمتلك الخريطة الأساسيّة لهذا الجهاز المفاهيميّ القرآنيّ؛ وإلا سيكون مضمون خطابه في جانب والمراد القرآنيّ في جانب آخر، أو على الأقلّ سيجانب مراد هذا الكتاب المطلق. فللمفاهيم القرآنيّة خصوصيّاتها المطلقة، ولها هيبتها وهيمنتها وقداستها وشمولها وتعاليها عن مؤثّرات الزمان والمكان؛ لأنّ طبيعتها تقوم على البناء والتأسيس والرعاية والتوجيه؛ لذلك كانت قيمًا حاكمة للفكر والثقافة والسلوك والعمران؛ عكس المفاهيم التاريخيّة المرحليّة المتأثّرة بالزمان والمكان، والمرتبطة بتيارات أو مدارس معيّنة، أو بقضايا وإشكالات جزئيّة. وتشكّل المحدّدات المنهاجيّة والمرجعيّة، المتناثرة في القرآن الكريم،

معالم كبرى يمكن أن يقاس في ضوئها كثير من ظواهر الفكر والثقافة والحضارة والمعرفة؛ وهي بمنزلة معيار لمقاربة إشكاليّات وقضايا مختلفة، ومنطلق لتحليلها ودراستها. والمتأمّل في الجهاز المفاهيميّ القرآنيّ يجده نسقًا متحرّكًا، مفعمًا بالحيويّة، ومعتبرًا للواقع، ومستشرفًا للمستقبل.

فالحاضر هو امتداد للماضي، والمستقبل سيكون امتدادًا للحاضر، ومن ثمّ، فإنّ استشراف المستقبل رهين بدراسة الماضي ومعرفة موقع الذات في الحاضر، والقرآن الكريم يدعو إلى النظر والتدبّر في حركة التاريخ لأخذ العبرة في الحاضر والمستقبل: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[(1)]؛ ومن مقاصد هذا النظر: تأسيس رؤية حضاريّة واضحة للواقع الإنساني تمكّن من امتلاك زمام المبادرة للرقي به نحو الأفضل.

وقد أولت النصوص التشريعيّة لمفهوم الزمن اعتبارًا خاصًّا؛ حيث «تتردّد في القرآن الكريم كلمات (الدهر، الغد، الحين، الوقت، قبل، وبعد)؛ وجميعها يدعو إلى الالتفات إلى الزمن والاهتمام المستقبلي، كما تتردّد كلمات (البصر، البصيرة، رأى، الرؤيا، والحلم)؛ وهي تدعو إلى النظر في ما هو قادم مقبل»[(2)]. فما مرّ منه هو الماضي الذي لا يعود، غير أنّه يترك لنا تجارب وآثار للعظة والاعتبار في الحاضر والمستقبل. فمهما بلغت خسائر الماضي، فلا ينبغي -بحال من الأحول- أن تكون سببًا للغرق في التفكير والمبالغة في الندم وطول التحسّر الذي قد يصل إلى اليأس والقنوط والانقطاع عن الحياة. ولذلك؛ نجد الإسلام يشجّع على التوبة والعودة والأوبة، فيتجاوز الخالق عن سجِلّ الماضي؛ بشرط العزم على إصلاح الحال في الحاضر والمستقبل. والمتأمّل في تشريعات الوحي -قرآنًا وسنّة- وفي أحكامهما ونظمهما، يجدها مفعمة بالإيمان والتفاؤل والتخطيط ووضع

(1) سورة آل عمران، الآية 137.
(2) الدجاني، أحمد صدقي: «الدراسات المستقبليّة وخصائص المنهج الإسلاميّ»، فصليّة المستقبليّة، تصدر عن المركز الإسلاميّ للدراسات المستقبليّة في بيروت، العدد2، 2001م، ج2، ص28.

استراتيجيّات لمستقبل أفضل؛ وهو توجّه موافق للنزعة الإنسانيّة التوّاقة إلى المستقبل؛ بغية تحقيق العيش الكريم في الدنيا، والفوز بالنعيم يوم القيامة.

وينبّه القرآن الكريم -بتعبيرات وأساليب ومنهجيّات مختلفة- إلى جملة من القضايا والمواضيع التي يُعدّ الوعي بها مفتاحًا لفهم جوانب من النظر الاستشرافيّ المبثوث في القرآن الكريم بتعابير وأساليب ومنهجيّات مختلفة، ومن بين أهمّ هذه القضايا: قضيّة الغيب، وأهمّيّة الرؤية الكلّيّة للوجود في التعامل مع الواقع، وأهمّيّة الوعي بالسّنن الإلهيّة في التخطيط للمستقبل.

1. الغيب المطلق والغيب النسبيّ:

من المعلوم من الدين بالضرورة اختصاص الله عزّ وجلّ بعلم الغيب المطلق (في الماضي والحاضر والمستقبل)؛ وهو العلم الذي غاب عن البشر، ولا تملك العقول طريقًا للتوصل إليه، ومن أمثلة ذلك: الملائكة، والجنّ، واليوم الآخر بتفاصيله وأحداثه، وغيرها من الأمور الغيبيّة غير القابلة للدراسة والبحث: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[1]، فعلمه تعالى غير محدود، وهو تامّ ومطلق وذاتيّ. ومن الغيب ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما أطلع عليه بعض خلقه، والاطّلاع ليس هو العلم اليقينيّ بالحقيقة الكاملة.

أمّا الغيب النسبيّ؛ فهو الغيب الذي يمكن أن يتكشَّف عن طريق الخبر الصادق من الوحي، أو عن طريق التجربة والاجتهاد والتوسّل بسبل العلم المُوصِلَة إليه؛ فهو من مُتعلّقات عالم الشهادة. ولا شكّ في أنّ الواقع المعاصر يشهد بأمثلة كثيرة لأمور وجوديّة وحقائق علميّة في مجالات الحياة؛ كانت في علم الغيب النسبيّ عند جيل أو أجيال سابقة، وأصبحت، بعد حين من الدهر، من المعلوم من شؤون الحياة بالضرورة عند الأجيال

(1) سورة النمل، الآية 65.

المعاصرة. وتشكّل هذه المعرفة غيبًا نسبيًّا تحقّقت معرفته بأسباب مادّيّة أزالت الحجب عنه. ولا زال الاختراق العلميّ لهذه الحجب مستمرًّا، مع العلم أنّ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1] سيظلّ آية حاكمة على العلم البشريّ، ودالّةً على عظمة الخالق وبديع قدرته وعلمه.

وعلاقة استشراف المستقبل بالغيب هي جزء من ثنائيّة وجوديّة كبرى تتعلّق بعلاقة الخالق بالمخلوق، علاقة أساسها التكليف والاستخلاف والعمل والكدح والاجتهاد والإتقان. فسيرورة العالم المستقبليّة هي، في علم الله، واضحة جليّة، وسعي الإنسان ليكون فاعلًا في مستقبله -تخطيطًا وممارسة- هو من مقتضيات التكليف وموجبات الجدّ والاجتهاد، وخاضع لميزان الخطإ والصواب.

2. الرؤية القرآنيّة والأسئلة النهائيّة الكبرى:

حدّدَت كثير من التوجيهات القرآنيّة والأحكام الشرعيّة صراحة جملة من الغايات التي من أجلها وُجِدَ الخَلْق والإنسان والحياة؛ وفي ذلك دليل على غائيّة النظام الكونيّ وتنزيه الوجود عن العبثيّة: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[2]، ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾[3]. أمّا النصوص التي تفصّل هذه الغاية وتبيّنها؛ فهي كثيرة متضافرة؛ كلّ نصّ منها يشير إلى جانب مهمّ من جوانب هذه الغائيّة؛ فقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة له في الأرض: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾[4]، خلافة أساسها العبادة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[5]، وعلى ضوئها تظهر أكبر تجلّيات الخلق؛ وهو معرفة الله تعالى؛ خالق الإنسان والوجود، ومقدّر سننه وقوانينه، لذلك كان «من الغايات القصوى لإيجاد الخلق: حبّ الله أن يُعرَف وأن يكشف

(1) سورة الإسراء، الآية 85.
(2) سورة المؤمنون، الآية 115.
(3) سورة القيامة، الآية 36.
(4) سورة البقرة، الآية 30.
(5) سورة الذاريات، الآية 56.

عن نفسه، بعد أن كان كنزًا مخفيًّا. وهذه المحبوبيّة ليست ارتجاليّة تتعلّق بكلّ شيء؛ بل إنّ متعلّقها خليفة الله في الأرض؛ وهو الإنسان»[1].

كما إنّ «مضمون الخلافة في الأرض يشتمل على عنصرين أساسين؛ أولهما: ترقية الذات الإنسانيّة متمثّلة في الإنسان الفرد؛ بتزكيته في نفسه وفكره وجسمه، وأعلى ما يكون ذلك بتقوية صلته بربّه الذي خلقه، ومتمثّلة -أيضًا- في الإنسان الجماعة؛ بتزكية الهيئة الجماعيّة؛ بالتراحم والتعاون والتكافل والتحابب والوئام. إذًا، فالإنسان -فردًا وجماعة- يرتقي في سلّم الإنسانيّة إلى أعلى الدرجات، كادحًا إلى ربّه كدحًا يقترب به منه، ويبتعد به عن سائر المخلوقات التي ليست محلّ تكليف. وثانيهما: التعمير في الأرض؛ عملًا بقوانينها، واستثمارًا لخيراتها، وارتفاقًا لمقدّراتها في غير سرف ولا عبث ولا إخلال بنظامها الموزون»[2]. وبذلك لم تكتفِ توجيهات الوحي بسرد هذه الغائيّة وتوضيحها؛ وإنّما جعلها جزءًا من نظام متكامل يوضّح الأهداف والغايات، وينبّه إلى الوسائل والمنطلقات، المراعية لطاقات الإنسان وقدراته عبر الزمان والمكان.

ومن مضامين هذه الغائيّة استشراف الآمال المستقبليّة والمعاني والرغبات، وهذه ميزة خُصّ بها الإنسان عن غيره من المخلوقات التي لا تعيش إلا لحظتها، يبتدئ بإحساسه «في نفسه بحسب الفطرة من أنّ لحياته غاية، ولوجوده معنًى مستقبليًّا يتجاوز به لحظته الراهنة إلى أمد مقبل، وهذا المعنى لا تخلو منه نفس بشريّة، مهما يكن المدى الذي تمتدّ إليه غاية الحياة في النفوس؛ طولًا وقصرًا في الزمن، وقوّة وضعفًا في المعنى، ولعلّ شواهد ذلك أنّنا لا نجد إنسانًا إلا وهو يدّخر من يومه

(1) نصر، حسين: قلب الإسلام، قيم خالدة من أجل الإنسانيّة، تعريب: داخل الحمداني، ط1، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2009م، ص23.
(2) النجار، عبد المجيد: مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، 2008م، ص103.

لغده، ومن حاضره لمستقبله، مهما اختلفت أنواع المدّخرات في طبائعها وأحجامها ومناهجها وآمادها»[1].

ومن واقعيّة الإسلام أنْ جعل من أعظم غاياته تحقيق سعادة الإنسان في الدارين؛ دنيا وآخرة، وفق معادلات وقوانين مضبوطة ترتكز على الإيمان والعمل الصالح والقيام بالتكاليف والكدح في الحياة، وهي أعمدة الاستخلاف والعبوديّة، نجملها في الآتي:

- مصدر الوجود هو الخالق تعالى؛ وهو المقدّر لسنن الكون ونواميسه.
- تأكيد حقيقة المغايرة الكاملة للخالق عن المخلوقات.
- تأكيد حقيقة تفرّد الإنسان وتميّزه عن الطبيعة.
- الغاية من الخلق: العبودية وتحقيق الاستخلاف بما يرضي الخالق ويُسعد الإنسان.

تُشكّل الرسائل السماويّة -وآخرها الإسلام- أقوم المناهج لتحقيق هذا الاستخلاف.

حياة الإنسان في الدنيا حياة مركّبة تتّسم بالأسرار والثغرات والانفلاتات.

من أكبر تجلّيات هذه الأسرار تأرجح الإنسان وترحاله بين ثنائيّات مختلفة؛ إراديًّا واضطراريًّا، والعبرة بالخواتم[2]. والحياة الخالدة تقسيم ثنائيّ صارم لا ثالث له (جنّة/ نار).

- الفناء الدنيويّ مصير محتوم على الجميع.
- الحشر بداية لحياة جديدة لا نهاية لها.

الحياة الخالدة في حقيقتها نتيجة لسلسلة ثنائيّات متتالية؛ منذ الحياة

(1) النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، م.س، ص101.

(2) بعبارة أخرى: سيرورة الحياة نسق مفتوح على كلّ الاحتمالات؛ لا يدلّ الكفر والفجور والفساد على نتيجة دخول النار مباشرة، وإنّما تبقى إمكانيّات التوبة والعودة والأوبة وتصحيح المسار خيارات واردة. . كما لا تدلّ الطاعة والإيمان والتقوى والصلاح على دخول الجنّة مباشرة، وإنّما تبقى مخاطر التبديل والتغيير وفساد النيّات احتمالات واردة، فالعبرة بالخواتم، والنماذج من تجارب السابقين كثيرة في هذا الباب، كما إنّه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان حسب بعض الآثار النبويّة.

الأولى، وعلى الرغم من معادلاتها الصارمة؛ فقد تتّسم -أحيانًا- بالتركيب والاستثناء:

- إيمان، تقوى، صلاح . . . حسن خاتمة جنّة
- كفر، فجور، فساد . . . سوء خاتمة نار

فالرؤية القرآنيّة للوجود تشكِّل نسقًا متكاملًا مستوعبًا لكلّ الأسئلة النهائيّة الكبرى التي تعترض الإنسان؛ إذ تمكّنه من القدرة على إيجاد الأجوبة الشافية الكافية المقنعة المطَمئنة، كما تمتدّ خيوط هذا النسق لتتكامل مع مختلف القضايا العلميّة والعمليّة على مستوى الفكر والواقع، فكلّما كانت الرؤية القرآنيّة هي الأساس؛ قلّ الخلاف وضاقت دائرته، وتكامل الغيب مع الشهادة، وكلّما نُوقشت في إطار مرجعيات وضعية مادّيّة؛ اتّسع الخلاف وزادت حدّته.

ثالثًا: أهمّيّة الوعي بالسُّنن في استشراف المستقبل:

ما لا شكّ فيه أنّ موضوع السُّنن الإلهية من أكثر الموضوعات التي حفل بها القرآن الكريم ووجّه إلى أهمّيّتها وضرورتها القصوى في فهم حركة الوجود، وقوانين الكون، وطبائع الحياة، وسنن العمران والتاريخ، ومناهج الاستخلاف، وسبل التحضّر[1]. ودراسة مدخل السنن في استشراف المستقبل من الموضوعات المهمّة التي تحتاج إلى مواكبة مستمرّة للواقع المتغيّر. والمقصود بالسنن «هي القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما لها صفة الثبات والدوام»[2]، وبعبارة أخرى: إن السّنن هي تلك «الأنساق القانونيّة التي بثّها الله عزّ وجلّ في كلّ المفردات الكونيّة؛ لتخضع له سبحانه في اطّراد وانتظام»[3].

---

(1) انظر: برغوت، عبد العزيز: «قضيّة السنن الإلهيّة في الفكر الإسلاميّ المبكر بين التأسيس النظريّ والوعي والثقافة السننيّة» ضمن مجلة «إسلاميّة المعرفة»، العدد44، السنة 11، ص59.

(2) القرضاوي، يوسف: العقل والعلم في القرآن الكريم، القاهرة، مكتبة وهبة، 1416هـ. ق/ 1996م، ص279.

(3) حيدوسي، عمر: «السنن الإلهيّة وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث»، بحث مقدَّم لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلاميّة، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2011م/ 2012م، ص192.

1. سنن إلهيّة مرتبطة بالنظر الاستشرافيّ:

إنّ السنّة في القرآن إمّا سنّة كونيّة وإمّا سنّة شرعيّة؛ فالأولى يسير عليها نظام الكون، والأخرى يسير عليها نظام الشرع. واعتماد العلماء الطريقة العلميّة في دراسة جميع الظواهر النفسيّة والاجتماعيّة مبنيٌّ على التسليم بأنّ الظواهر محكومة بسنن؛ فثمّة سنن طبيعيّة وأخرى اجتماعيّة يخضع لها الإنسان بصورة صارمة. وتتميّز السّنن الإلهيّة بأنّها تشكّل نسقًا متكاملًا، ويمكن تقسيمها إلى أنواع؛ منها: السنن الكونيّة، السنن النفسيّة والاجتماعيّة، والسنن التاريخيّة.

فالسنن الكونيّة هي التي تتعلّق بالكون وما يجري فيه، واكتشافها تجلٍّ من تجلّيات تفاعل العقل مع الكون؛ ومن هذه السنن: «قانون الجاذبيّة»، ومختلف قوانين المادّة، التي ساهم اكتشافها في تطوّر العلوم، وإحداث نقلة نوعيّة في نمط الحياة وطرائقها؛ مثل: علوم الطبّ، الهندسة، الفلك، الفيزياء، والكيمياء. . . وسبر أغوار المادّة والأشياء وقوانينهما هو فعل إنسانيّ محض لا علاقة له بالمعتقد ولا بالدين ولا بالعرق ولا بالجنس؛ وإنّما هي مرتبطة بالحسّ والمشاهدة والتجربة وممارسة الجهد العلميّ والمعرفيّ.

والسنن النفسيّة والاجتماعيّة هي السنن التي ترتبط بالنفس وخلجاتها، وما يرتبط بالاجتماع البشريّ وتفاعلاته. واكتشافها تجلٍّ من تجلّيات تفاعل العقل مع الوحي والواقع، وهي سنن متداخلة مترابطة؛ منها: سُنّة «التعجيل»: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾[1]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[2]، ومنها: «حبّ المال والتملّك»: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[3]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[4]. ومن السنن الاجتماعيّة: سنة

(1) سورة الأنبياء، الآية 37.
(2) سورة الإسراء، الآية 11.
(3) سورة الفجر، الآية 20.
(4) سورة العاديات، الآية 8.

«التعارف»(1): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(2)، ومن هذه السّنن «سنة الفتنة والابتلاء»: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(3)، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾(4). وحديث الوحي عن هذه السّنن يمكّن من فهم أعمق للإنسان وخلجاته ولمكوّنات الواقع وتفاعلاته، فحركة الحياة والأحياء تسير وفق منهج سنني؛ إذ «إنّ بؤرة الرؤية المستقبليّة ونقطة الانطلاق الأساس في النهوض وإبصار المستقبل من خلال مقدّماته، أو التمكّن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه؛ إنّما تتحقّق من خلال اعتماد المنهج السنني، ومحاولة الكشف عنه وملاحظة اطّراده في الحياة، ومن ثمّ تأتي مرحلة التسخير والقدرة على المداخلة في المقدّمات من خلال القانون ذاته»(5).

والسنن التاريخيّة هي الضوابط والقوانين والنواميس التي تتبدّى في سيرورة التاريخ بمقدّمات ونتائج في فترات زمنيّة قد تطول وقد

(1) يرتبط بسنّة «التعارف» ثنائيّة كبرى؛ وهي ثنائيّة المعروف والمنكر؛ باعتبار أنّ التعارف قد يكون على معروف أو على منكر (بمفهوميهما الواسع)، وركيزة المعروف التفاهم والتوافق والتراضي. ويقترح طه عبد الرحمن جملة من الخطوات لضبط هذه الثنائيّة في إطار الخطّ التعارفيّ، حين يذهب إلى أنّ «حدّ التخلّق التعارفيّ هو أنّه التخلّق الناتج عن تعاون الأشخاص والأمم على المعروف، لا عن تعاونهم على المنكر؛ وتندرج في المعروف جميع المنافع التي من شأنها أن ترتقي بإنسانيّة الإنسان أو على الأقلّ تحفظها؛ في حين تندرج في المنكر جميع المنافع التي من شأنها أن تنحطّ بهذه الإنسانيّة؛ ومتّى اتّخذنا التخلّق التعارفيّ معياراً؛ صار كلّ مستحدث يحفظ أخلاقيّة تعامل الأشخاص والأمم بعضهم مع بعض - وبالأولى زاد في هذه الأخلاقيّة- نتاجًا مقبولاً؛ وكلّ مستحدث نقص من هذه الأخلاقيّة، نظرنا فيه؛ فإنْ كان هذا النقص لا يُخرج تعامل الأشخاص والأمم إلى إمكان تعاونهم على المنكر؛ كان المستحدث مقبولاً، وإنْ كان هذا النقص يُخرج إلى مثل هذا التعاون؛ كان هذا المستحدث مردودًا» (عبد الرحمن، طه: الحقّ الإسلاميّ في الاختلاف الفكريّ، ط2، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ، 2009م، ص294-295).

(2) سورة الحجرات، الآية 13.

(3) الأنبياء، الآية 35.

(4) سورة العنكبوت، الآيتان 2-3.

(5) بلكا، إلياس: استشراف المستقبل في الحديث النبويّ، تقديم: عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمّة، قطر، مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، العدد44، مقدّمة الكتاب، ص12.

تقصر[1]: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[3]. ولعلّ القصص القرآنيّ يتوافر على مادّة علميّة غنيّة بمضامينها وعبرها لاكتشاف هذه السنن، غير أنّه يمكن التأكيد أنّ القصص القرآنيّ «لم يُدرَس بعد دراسة سننيّة متكاملة، تضعه في عمق سياقه المعرفيّ الحقيقيّ، الذي يتجاوز نطاق التأريخ، إلى نطاق فلسفة التاريخ والحضارة؛ بل يتجاوز نطاق التقرير المباشر للأحكام الفقهيّة والآداب الشرعيّة، إلى نطاق تلمّس الأبعاد والدلالات السننيّة الكامنة والفاعلة باطّراد»[4].

2. أهمّيّة السنن الإلهيّة في استشراف المستقبل:

تحتلّ مفردات التأمّل والتفكّر والبصيرة والاعتبار والنظر حيّزًا مهمًّا في ثقافتنا الإسلاميّة، فلا قطيعة لدينا بين الحاضر والماضي والمستقبل. والقرآن -عبر منهجيّته المعرفيّة- يؤسّس لنظر تكاملي بين هذه الأزمنة الثلاثة. فالتاريخ مستودع لتجارب حضارات مختلفة ذات ديانات وأعراق ولغات متباينة، ضمّت سيروراتها وحقبها أحداثًا وتفاعلات غزيرة، تحتاج منّا إلى التأمّل والدراسة والتحليل، وإلى عمليّات الفرز والتصنيف وتحديد المسؤوليّات والأسباب والتمظهرات والمحفّزات والمثبّطات، وأيضًا استقراء الفترات اللازمة لتشكّل مظاهر معيّنة وانعكاساتها الإيجابيّة أو السلبيّة على واقع البشريّة في أزمنتها. والنظر الزمنيّ في التاريخ يخرجنا من ضيق أعمارنا، وينبّهنا إلى طبيعتنا الاستعجاليّة، ويضعنا أمام حقائق وسنن تقاس بالقرون ومئات السنين. وقد تكون أمثالها سننًا جارية في أنفسنا وواقعنا،

(1) انظر: الكفيشي، عامر: حركة التاريخ في القرآن الكريم، ط1، بيروت، دار الهادي، 1424هـ. ق/ 2003م، ص227-228.

(2) سورة الأحزاب، الآية 62.

(3) سورة آل عمران، الآية 137.

(4) برغوث، الطيب: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافيّة على ضوء نظريّة التدافع والتجديد، دمشق، مركز الراية للتنمية الفكريّة، 2006م، ص129.

فنحتاج إلى الوعي بها، ومعرفة النقطة التي نتموضع فيها؛ إذ لا تشكّل أعمارنا، بمقياس الزمن السننيّ، إلا مرحلة قصيرة في سيرورتها[1].

فالمقصد العامّ للسنن التاريخيّة هو الوعي والعبرة والاتّعاظ من تجارب السابقين، «والاعتبار -في أبسط معانيه- هو عبور الإنسان من إحدى ضفتي النهر (الحاضر) إلى الضفة الأخرى (المستقبل) وتعدية الرؤية، والوصول إلى نتيجة؛ مفادها: أنّ الذي يفعل المقدّمات يقع بالنتائج»[2]. وهو ما أكّد عليه القرآن الكريم: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[3].

إنّ سرد أحداث من التاريخ في القرآن (القصص القرآنيّ)؛ على الرغم من أنّه ضمن مجال الغيب الذي مضى وانقضى واختفى، فقد تَرَكَ قوانين وقواعد تشكّل منارات هادية للزمن المستقبل، فالدنيا محلّ ابتلاء وتكليف واختبار، والمقصد الأساس من إيراد تلك القصص والنماذج العمليّة والتطبيقيّة هو الوقوف على أحوال السابقين واستخلاص كلّيّات الوعي الحضاريّ وفنون التسخير ومناهجه، وأخذ العبرة والمقاربة والمقايسة والتقدير لأبعاد المستقبل والانتظام مع هذه السنن؛ بالوقوف على ما آلت إليه الأحوال لأسباب معيّنة (انحرافات خاصّة، معاندة، تكذيب، طغيان، فساد. . .)، فتتبصّر الأجيال الحاضرة والمقبلة طريقها، وتعرف مسيرتها، وتصحّح رؤاها ونُظمها، وتدرس خططها، وتثبّت خطاها على طريق السلم والأمن والعافية والأمان. «ودروس التاريخ وعِبَره في هذا واضحة نيّرة، فما اهتدت أمّة إلى جادّتها، وما صلح فكرها ومنطلقاتها؛ إلا اندفعت طاقتها وجموعها كالسيل الهادر، تشقّ طريقها في الأداء والإنجاز بما ليس معهودًا من سابق قدرتها وحركتها وأداء أبنائها، فلا يمضي وقت طويل إلا وقد

(1) يمكن أن نمثّل لذلك بالهدف النبيل الذي ينشده كلّ مسلم؛ وهو انتصار الأمّة المسلمة وخروجها من أزمات التخلّف والتراجع التي تعاني منها حاليًا، بل وشهودها على باقي الأمم وحملها لواء الريادة من جديد، وإذا قدّرنا، على سبيل المثال، أنّ تحقيقه في قرنين أو ثلاثة قرون، فإنّ الجيل الذي سيشهد هذا الإنجاز وينعم بخيراته النفسيّة والماديّة هو جيل لحظة التتويج التي كدّ من أجلها أجيال عديدة من الآباء والأجداد ومن سبقوهم. وبالتالي؛ فهذا إنجاز حضاريّ جاء تتويجًا لتراكمات أجيال متعاقبة كلّ جيل ساهم بمقدار معيّن وأرسى لبنة من لبناته.

(2) من تقديم لعمر عبيد حسنة لكتاب «استشراف المستقبل في الحديث النبوي»، م. س، ص16.

(3) سورة الحشر، الآية 2.

تغيّر حالها، وصلح أداؤها. وكهذا حساب الزمن، يمتدّ ويتطاول على العاجز والضالّ، ويقصر ويتلاشى أمام القدرة والعزيمة»[1].

وإذا كان للنظر في التاريخ أهمّيّته واعتباره، فإنّ للنظر في الكون أهمّيّة أخرى تتكامل مع مكوّنات النظر الكلّيّة في القرآن الكريم. ومن القواعد التي قرّرها القرآن الكريم: أنّ الكون مسخّر للإنسان؛ بشرط أن يعرف سننه، ولا شكّ في أنّ السنن في مجال المادّة أظهر منها في مجال المجتمع والتاريخ. وقد نبّه القرآن على أنّ للسنن الاجتماعيّة صرامة السنن الطبيعيّة نفسها، ولكنّ طريقة عمل كلّ منهما تختلف عن الأخرى؛ للفرق الحاصل بين حركة المادّة وحركة الإنسان[2]، فالتعامل الحكيم والفعل الرشيد مع الطبيعة ليس بالأمر الهيّن؛ لأنّه مبنيّ على ضرورة معرفة «كلمة السرّ» المناسبة؛ وهي السنن الكونيّة وتعامله معها بعلم وموضوعيّة، حيث يؤكّد سبحانه قائلًا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[3]. ولذا؛ أوجد الخالق سبحانه الطبيعة على خاصّيّة أن لا تطيع الإنسان إلا إذا دعاها عن طريق «المعرفة السننيّة»، فإذا جهل هذا الطريق أو سلك غيره؛ فلا تستجيب له.

والنهوض الحضاريّ هو فعل إنسانيّ خاضع لسنن الله في الوجود؛ نظرًا إلى ارتباطه بفضاء الاستخلاف ودرجة التعقّل والمنهج المتّبع، «وحركة النهوض لن تتحقّق إلا بمعادلة ثلاثيّة الحدود:

- لا نهوض من غير تسخير لخامات الطبيعة.
- لا تسخير لخامات الطبيعة من غير علم صحيح ينطق بالحقّ.
- لا علم صحيح من غير معرفة تامّة بسنن الكون والحياة.

فالسّنة قانون الله في الكون، والعلم هو معرفة هذه السنن وحسن

(1) أبو سليمان، عبد الحميد: أزمة العقل المسلم، ط2، فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1430هـ. ق/ 2009م، ص236.

(2) انظر: توفيق، محمد عزّ الدين: التأصيل الإسلاميّ للدراسات النفسيّة، ط2، دار السلام، 1418هـ. ق/ 2002م، ص75.

(3) سورة الفتح، الآية 23.

التعامل معها، والتسخير هو الثمرة العمليّة لهذه المعرفة»[1]، مع العلم أنّ معرفة هذه السنن كتاب مفتوح أمام جميع الناس؛ مع غضّ النظر عن دينهم أو عرقهم أو جنسهم، فإنْ رافق ثمرة تلك المعرفة إيمان بالله تعالى؛ كان ذلك طريق الكمال المنشود: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

إنّ مفهوم السّنن يشكّل بعدًا محوريًّا في فهم الإنسان ووظيفته[3]، فالإنسان هو صانع حركة الحياة ضمن السّنن الكونيّة والاجتماعيّة[4]. إنّه ملزم بسنن النظام الكونيّ؛ لكنّه حرّ في اختيار اتّجاهه فيها، فالمجال مفتوح أمامه لممارسة دوره في النهوض والتغيير، وهي حركة تزداد فيها حرّيّته كلّما تمكّن من اكتشاف سنن هذا النظام وعمّق التفقّه فيها، غير أنّ فعله مشروط بجزاء إلهيّ سننيّ يقابله. لهذا؛ كانت «علاقة الإنسان مع قوى الطبيعة علاقة تعرّف وصداقة، لا علاقة تخوّف وعداء؛ ذلك أنّ قوّة الإنسان وقوّة الطبيعة صادرتان عن إرادة ربّانيّة ومشيئة إلهيّة واحدة. وكلّما تعرّف الإنسان على قانون من قوانينها تفتّحت أمامه أبواب جديدة للنهوض، وتيسّر له قدر جديد من الرقي والراحة والمتاع»[5]؛ علمًا أنّ «الاستمتاع بهذا التسخير (بعد معرفة سننه) لا يتمّ إلا بالإيمان: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾[6]»[7]، «فإذا كان الإنسان على غير هدى من الله، فليس له إلا ما تمتّع به في دنياه، أمّا في الآخرة؛ فليس له من عمله إلا العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ

(1) الكفيشي، «مقوّمات النهوض الإسلاميّ بين الأصالة والتجديد»، م. س، ص217.
(2) سورة النحل، الآية 97.
(3) انظر: برغوت، عبد العزيز: «ملاحظات حول دراسة السنن الإلهيّة في ضوء المقاربة الحضاريّة»، مجلة إسلاميّة المعرفة، السنة13، العدد49، صيف 1428هـ. ق/ 2007م، ص17.
(4) انظر: محفوظ، محمد: أوّليّات في فقه السنن في القرآن الكريم، ط1، مركز الراية للتنمية الفكريّة، 1426هـ. ق/ 2006م، ص11.
(5) الكفيشي، مقوّمات النهوض الإسلاميّ بين الأصالة والتجديد، م. س، ص215.
(6) سورة سبأ، الآية 8.
(7) سعيد، جودت: الإنسان كلاًّ وعدلًا، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1414هـ. ق/ 1993م، ص44.

بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾[1]، ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾[2]، وإنْ اكتشفوا ما اكتشفوا، وأنجزوا ما أنجزوا، وأفادوا البشريّة ما أفادوها؛ في مختلف المجالات العلمّية، والخدمات الاجتماعيّة، والمصالح العموميّة، وعلى جميع المستويات الدنيويّة»[3].

إنّ معرفة الإنسان الدقيقة بهذه السنن أمرٌ في غاية الأهمية، فهي عبارة عن منارات هادية وأنوار ساطعة تنير سبل النجاة وتمكّن من التبيّن من أنواع الجزاء الناتجة عن التوجّهات والاختيارات، فعندما يكون جزاء أيّ سُنّة أو قانون لا يتّفق مع المصلحة أو الهدف المنشود، فالخيار الحكيم حينئذ يكون بالعمل على الحيلولة دون وقوعه، والامتناع عن توفير شروطه؛ إذ «بتغّير المحتوى الداخليّ الفكريّ والإراديّ للأفراد، نحو الأهداف الصالحة أو الطالحة، يتحقّق الشرط الموضوعيّ الذي تتفاعل معه السنن التاريخيّة، فيستجيب له الواقع الخارجيّ، الذي يمثّل البناء العلويّ لحركة التاريخ»[4].

ومن ثمّ، فإنّ إرادة الإنسان وفعله تنعكس آثارهما على حركة التاريخ، فالإيمان، والتقوى، والصبر، والشجاعة، وحب الخير، والتعاون، والإيثار، والإنصاف، والعبادة الصحيحة، والأعمال الصالحة، والتقيد بموجبات الأنظمة الأخلاقية، والانصراف إلى العمل والإنتاج، ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسيء... ؛ كلّها علامات نهوض اجتماعيّ، ورقي إنسانيّ، فلا يمكن أن تؤدّي إلا إلى الطمأنينة، والابتهاج بالحياة، والسلام، والرخاء. بينما تكون آثار الكفر، والنفاق، والطغيان، والغرور، والظلم، والترف، والإسراف، والجبن، والضلال، والمكر، والخديعة، وفساد الأخلاق، وانحراف

(1) سورة إبراهيم، الآية 18.

(2) سورة الفرقان، الآية 23.

(3) عبد النور بزا: ط1، مصالح الإنسان، مقاربة مقاصديّة، المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ، 1429هـ. ق/ 2008م، ص374.

(4) الكفيشي، حركة التاريخ في القرآن الكريم، م. س، ص249.

السلوك، . . .؛ كلّها وخيمة جدًّا على ذات الإنسان، وحركة التاريخ[1].

ونستنتج من ذلك أنّ لإرادة الإنسان وفعله أثر موجّه في حركة التاريخ نحو المستقبل، «فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلّف مسؤول، سيّد الكون، عبد الله، استخلفه في الأرض، ليعبده فيها، ويعمرها ويُجمّلها، ويقيم فيها الحقّ والعدل. وهو الذي يصنع مصير نفسه بيده؛ بما أودع الله فيه من طاقات، ومنحه من مواهب: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾[2]، وقادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغيّر بنفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3]»[4]؛ بناءً على نهج واضح يقدِّر الإنسان فيه مسؤوليّته، ويعي أهدافه وغاياته؛ حتّى يكون سيره سيرًا غائيًّا قاصدًا، لا عوج فيه ولا تخبّط، وعلى بيّنة من أمره في جميع تصرّفاته واختياراته.

3. سُنّة التدافع والتغيّر الحضاريّ المطلوب:

إنّ التغيّر الحضاريّ سيرورة حتميّة لجميع المجتمعات والشعوب. والتخطيط للتغيّر المدروس يقي من الوقوع في شباك التغيّر المفروض، الذي يسعى من خلاله الآخر إلى فرض هيمنته واستمرار قبضته. والمنطق الحضاريّ الذي يؤسّس له القرآن (القائم على التعاون والتعارف والتدافع السلميّ التعاونيّ) لا نجد صداه عند أغلب التشكيلات الحضاريّة الأخرى؛ وبخاصّة التشكيل الحضاريّ الغربيّ الماديّ الذي جعل هدفه الهيمنة والسيطرة، وفرض مركزيّة أحاديّة تقوّض من تأثير الحضارات المجاورة. ويؤكِّد ذلك عدد من الإنتاجات النظريّة الفكريّة الغربيّة التي يغلب عليها منطق الصراع الحضاريّ والنزعات الرأسماليّة الإمبرياليّة ومقولات نهاية التاريخ ونهاية الإنسان.

(1) انظر: م. ن، ص252.

(2) سورة الإسراء، الآية 15.

(3) سورة الرعد، الآية 11.

(4) القرضاوي، يوسف: فقه الوسطيّة الإسلاميّة والتجديد «معالم ومنارات»، ط1، القاهرة، دار الشروق، 2011م، ص38-39.

ولا شكّ في أنّ الضربات القويّة التي تعرَّض لها عالم المسلمين في الفترات المعاصرة تؤرِّخ لفترة حَرِجَة من مسلسل التدافع الحضاريّ الذي زادت حدّته العولمة الجارفة، وحدّة التسلّح، وسلطة الإعلام والمال.

فالتدافع سُنّة كونيّة، وقانون أساس في التصوّر الإسلاميّ لنظام الوجود، وبخاصّة في جانب التكليف الإنسانيّ والبناء الحضاريّ، وقد أشار الله -تعالى- إلى ذلك بحكم عامّ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وللتدافع أشكال متنوّعة وصور مختلفة، «وبهذا يمكن تعريف سنّة التدافع بأنّها طريقة الله تعالى في توجيه التفاعل بين القوى المتعدّدة؛ حيث يؤثّر كلّ منها في الآخر ويتأثّر به؛ إيجابًا وسلبًا؛ وذلك بصورة مستمرّة ومتتابعة، تسهم في تحقيق التوازن بينهما أولًا، وتنتهي بظهور بعضها على بعضها الآخر»[3]. والظهور الذي ينشده المنظور القرآنيّ هو تحقيق الخير والعدل والصلاح ومدافعة الشرّ والظلم والفساد. ولن يتمّ التّمكين لذلك والمحافظة عليه إلا من خلال تفعيل آليّات التدافع ومناهجه.

ومن المعاني التي يحملها مفهوم «التدافع»: تفاوت القوى والقدرات والطاقات، واختلاف الأطراف المتدافعة وتباينها، ولا يقتصر التدافع بين الحقّ والباطل كما هو مشهور؛ بل يمكن أن يكون التدافع بين حقّين متفاوتين «تدافعًا إيجابيًّا» ينتهي بظهور حقّ على حقّ أضعف منه، كما يمكن أن يكون التدافع بين باطلين متصارعين «تدافعًا سلبيًّا تصادميًّا»

(1) سورة البقرة، الآية 251.
(2) سورة الحج، الآية 40.
(3) أبو الفتح، معاذ بن محمد عبد الله بيانوني: «سنّة التدافع من منظور إسلاميّ»، «مجلة الإسلام في آسيا» المجلد8، العدد1، يونيو 2011م، ص135.

ينتهي بظهور باطلٍ على باطلٍ أهون منه، أو تحقيق توازن بينها جميعًا. علمًا أنّ الباطل بجميع تنويعاته في تدافع مستمرّ مع الحقّ في جولات كبرى متكرّرة تنتهي بأنْ يدمغ الحقّ الباطل وينتصر عليه: ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾[1]، ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾[2]، ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾[3]. وقد تقرّر عند بعض العلماء «أنّ من المستحيل واقعًا وشرعًا أن يسلّط الله على البشريّة ظالمًا واحدًا، يتحكّم في مصيرها، لفترة طويلة؛ ذلك أنّ التدافع يكون بين الظلمة أنفسهم، وبينهم وبين الحقّ؛ وهذا سنّة جارية في الحياة، حتّى يتوقّف التاريخ، ويتغيّر نظام الكون»[4].

وقد تتعدّد أشكال التدافع بين مختلف التشكيلات المجتمعيّة، غير أنّه كلّما ابتعدت عن التصادم والصراع والخصام المبني على العنف والفجور (التدافع التناحريّ)، واقتربت من التفاهم والحوار والتوافق (التدافع التعاونيّ)؛ تنزّلت بركات الخير والإصلاح على الجميع؛ وهذا هو التدافع القرآنيّ المطلوب المؤسّس على السلم والتعاون. وكلّ مجتمع يعيش في ظلّ هذه القيم هو مجتمع ينمّ عن نضج فكريّ واختيار حضاريّ راق، ولا شكّ في أنّ الأزمات الطارئة سيتمّ تصريفها بأقلّ الخسائر الممكنة[5]. يقول محمد عمارة: «فالتدافع الحضاري الذي هو حراك وتنافس وتسابق، يحافظ على التعدّدية، ويتوسّط بين الصراع وبين السكون، وهو فلسفة الإسلام وسبيل حضارتنا الإسلامية في العلاقات بين الحضارات»[6].

(1) سورة الشورى، الآية 24.
(2) سورة الأنبياء، الآية 18.
(3) سورة الإسراء، الآية 81.
(4) القديري، أحمد: الإسلام وصراع الحضارات، تقديم: عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمّة، قطر، مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، العدد44، المقدّمة، ص11.
(5) نذكر هنا نماذج من الصراع الطائفيّ في عدّة بلدان إسلاميّة أزهقت بسببه مئات الأرواح وشرّدت آلاف الأسر؛ نظرًا لتعنّت الطوائف المتصارعة، وإقصاء بعضها بعضًا، ورفضها الجلوس للتحاور والتوافق.
(6) عمارة، محمد: الحضارات العالميّة تدافع أم صراع، ط1، مصر، مكتبة نهضة، سلسلة التنوير الإسلاميّ، العدد24، 1998م، ص18-19.

ويرتبط بالتدافع سنن أخرى قد تكون ملازمة له وقد تأتي على شكل حصيلة له أو نتيجة، نذكر منها:

- سُنّة التعدد والتنوع، وهي أساس التدافع؛ لأنه لا تدافع بدون تنوع واختلاف. وعلى عكس المركزية الغربية ذات التوجّه الواحدي، نجد فلسفة الحضارة الإسلامية تقوم على الاعتراف بأحقّية الحضارات الأخرى في الوجود بخصائصها ومميّزاتها، وإمكان الإفادة والاستفادة منها في إطار محدّدات التعاون والأخذ والعطاء.

-سُنّة التداول، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1]، ويفيد تحليل الواقع المعاصر أنّ شروط التداول الحضاريّ متوافر لبروز قوى حضاريّة جديدة تخفّف من حدّة الأزمات القائمة التي أفرزتها الرؤية الكونيّة للحضارة الغربيّة[2]، وبخاصّة مع صعوبة تخلّيها عن معدّلات الاستهلاك والإنتاج والرفاهيّة، وتصريف منتجات التسلّح المفرط. فالفرصة متاحة، بل مفروضة، أمام إسهام الحضارة الإسلاميّة لوضع استراتيجيّات مستقبليّة تستفيد من قوّة منظومتها القيميّة والروحيّة، وترشيد إمكاناتها المادّيّة في أفق تأسيس تداول حضاريّ جديد.

- سُنّة التغيير؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ

(1) سورة آل عمران، الآية 140.

(2) أصبحت المشكلات التي أفرزها التقدّم المادّيّ قضايا شبه عالميّة، يئنّ تحت وطأتها مجموع سكّان المعمورة؛ وأهمّها: تناقص المساحات الخضراء، التلوّث الهوائيّ والمائيّ والأرضيّ والباطنيّ، التزايد الحراريّ، ثقوب الأوزون، انتشار الأسلحة النوويّة، الحروب والصراعات المستمرّة، الفشل الذريع في التخلّص من النفايات النوويّة وغير النوويّة، استنزاف الثروات الطبيعيّة، والتسرّبات النفطيّة في البحار والمحيطات؛ فضلًا عن «تآكل الأسرة، تراجع التواصل بين الناس، زيادة الأمراض النفسيّة في المجتمعات الحديثة، تزايد الإحساس بالاغتراب وبالوحدة والغربة، ظهور الإنسان ذي البعد الواحد (العقلانيّ)، هيمنة النماذج الكمّيّة والبيروقراطيّة على الإنسان، تزايد العنف والجريمة، انتشار الإباحيّة، تعدّد السلع التافهة، تضخّم قطاع اللذّة، ازدياد قدرة الإعلام وغزوه حياة الإنسان الخاصّة، ودوره الضخم في صياغة صورة الإنسان وطموحاته وأحلامه، تزايد الإنفاق على التسلّح، تهديد إنسانيّة الإنسان، وتأكيد الفردانيّة المفرطة التي تبتر الإنسان عن أبعاده الإنسانية» (المسيري، عبد الوهاب: العلمانيّة والحداثة، تحرير: سوزان حرفي، ط1، دمشق، دار الفكر، 1430هـ. ق/ 2009م، ص232). وكلّها أشكال مرضيّة خطيرة تستدعي معالجة عاجلة، ظهر هذا كلّه بعد مئة أو مئتي عام فقط من الإنتاج الصناعيّ؛ الأمر الذي يدعو إلى القلق بخصوص الظروف التي ستواجهها الأجيال المقبلة؛ إذا استمرّ الوضع على الوتيرة نفسها والتوجّهات نفسها.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1]، فأوضاع العالم سائرة نحو التغيّر بأشكال متسارعة، ومن لم يضع خطط مدروسة ليكون فاعلًا في معادلة التغيير التدافعيّ؛ سيجرفه -لا محالة- تيّار الصراع التناحريّ.

- سُنّة التفاضل والتمايز والسبق إلى أعلى الدرجات؛ قال تعالى:﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾[2]، ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[3]؛ فالشهادة القرآنيّة بخيريّة الأمّة الإسلاميّة تعدّ مسؤوليّة عظيمة مُلقاة على عاتق كلّ جيل ليحقّق نسبة من هذه الخيريّة. والتفاضل مظهر من مظاهر الاختلاف، فالأصل أن تكون مرتبة القيادة والتوجيه من نصيب الأفضل والأحسن والأنفع والأكثر خيرًا، وإذا تحقّق العكس كان ذلك دليلًا على وجود خلل في البنية الاجتماعيّة والسياسيّة برمّتها. وأسباب ذلك عديدة متنوّعة قد ترتبط بالاستبداد والتجبّر والطغيان، وقد تتعلّق بالخنوع والذلّة والصغار، وقد ترتبط بالهروب والتقوقع والانعزال، ولكلّ حالة مظاهرها ونتائجها المقرّرة في السنن الشرعيّة.

- سُنّة «الفناء»؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[4]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[5]، فسُنّة الفناء حاكمة على الإنسان والأمم والحضارات. وأفول الحضارات وسقوطها كتاب مليء بالسّنن والعبر والعظات، يبقى مفتوحًا للتأمّل وأخذ الدروس.

إنّ مختلف السنن السابقة تدلّ على أنّ التدافع سُنّة كلّيّة ترتبط بها سنن أخرى، تكون سببًا له أو نتيجة، والتدافع التعاونيّ أفضل منهج وأسلم طريق

(1) سورة الرعد، الآية 11.
(2) سورة النحل، الآية 71.
(3) سورة آل عمران، الآية 110.
(4) سورة الرحمن، الآيتان 26-27.
(5) سورة الأعراف، الآية 34.

لحفظ العقول والأرواح والأبدان والأمكنة، والذي يعطي أفضل الثمار وأينعها، ويجعل الزمان والمكان الذي وقع فيه أنموذجًا فريدًا لباقي الأمكنة والأزمنة والعصور. كما إنّ تحقيق الفهم بالسّنن المرتبطة به ومعرفة تفاعلاتها وتنزيل العمل بها على الوجه الحسن ليس بالأمر الهيّن؛ بل يحتاج إلى وعي وفهم وتربية وحسن تنزيل. يصدق ذلك في التدافع الأكبر بين أمّة الإسلام وغيرها من الأمم؛ كما يصدق في التدافع الأصغر داخل بنية المجتمع المسلم بين مختلف مكوّناته وتياراته؛ السياسيّة والفكريّة والدينيّة والثقافيّة.

خاتمة:

إنّ المؤشّرات الحقيقية التي يزخر بها الوحي، في ما يتعلّق بالنظر المستقبليّ، هي الدافع الرئيس لمقاربة هذا الموضوع من زاوية شرعيّة وواقعيّة وكونيّة ونفسيّة واجتماعيّة وتاريخيّة وحضاريّة. والمقصد الأساس هو أنْ يستفيد كلّ جيل من تجربة الجيل السابق، وأن يبني عليها للتأثير والتغيير نحو الأفضل، ولا شكّ في أنّ الأجيال المعاصرة قد وقفت على تراكمات كثيرة وتجارب حضاريّة عديدة؛ أبرزها ما أثبته الوحي من قصص السابقين للاعتبار؛ ومنها: التجارب المدوّنة في كتب التاريخ والسير، فضلًا عن الثورة العلميّة والتقنيّة والتكنولوجيّة والرقميّة التي فتحت آفاقًا رحبة في مجال الكون والحياة.

إنّ «إمكانات» الأمّة الوفيرة؛ المعنويّة والماديّة، وواقع الأزمة المعاصرة يفرض الوقوف على أسباب وقوع هذه المفارقة واستمرارها؛ حيث إنّ الأصل في الإمكانات أن تبرز تلقائيًّا على هيئة بناء متكامل قادر على التأثير والتغيير، أو ردّ فعلٍ قويّ اتّجاه سيلٍ من التحدّيات والأزمات المعرقلة للنهوض الحضاريّ للأمّة؛ بغية تجاوزها.

فتاريخ الأمّة الإسلاميّة هو تاريخ الإمكانات والممكنات[1]، تاريخ

(1) بين مفهومي «الإمكانات» و«الممكنات» نوعٌ من العلاقة التضمّنية، إذ يمكن أن تكون الإمكانات متعدّدة، ولا يمكن تفعيلها كلّها؛ نظرًا إلى غياب عدد من الشروط والأسباب المساعدة. . . فهنا

التحدّيات والمنجزات، ومستويات تفعيل القدرات والموارد والطاقات؛ بحكم توافرها على ما لم يتوافر لغيرها من الأمم (مساحة جغرافيّة ممتدّة ومتنوّعة، ثروات نفيسة، إمكانات مادّيّة وبشريّة، وتعدّد عرقيّ ولغويّ. ..)، فضلًا عن الإمكانات الروحيّة والمعنويّة التي تعتبر بحقّ مفخرة هذه الأمّة ومصدر عزّها وقوّتها، ونقصد بذلك دين الإسلام بعقيدته السمحة، وبقيمه الأخلاقيّة والإنسانيّة، وبمنظومته الفكريّة والتشريعيّة والحضاريّة... وهي القيم التي أمدّته بإمكانات هائلة استطاع من خلالها مواجهة مختلف التحدّيات التي هدّدت كيانه وزلزلت وجوده؛ من مثل: هجمات التتار والمغول والحروب الصليبيّة والنزاعات الداخليّة. . .

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ التوافر على إمكانات النهوض لا يعني حتمًا تحقُّق هذا النهوض؛ وإنّما لا بدّ من منهجيّة معيّنة وشروط خاصّة لتحقيق فاعليّة هذه الإمكانات، وإلا ستظلّ معطّلة أو سيستفيد منها الآخر لتكريس سلطته وهيمنته.

وأهمّ القيود المكبِّلة لانطلاق هذه الإمكانات وتفعيلها؛ هي القيود المعرفيّة والمنهجيّة ذات الصناعة التاريخيّة القائمة على الارتجاليّة وتغييب قواعد البحث العلميّ المهتدية بسنن الله في خلقه، التي سيؤدّي الوعي بها إلى تكسير الأوهام وتجاوزها واكتشاف البوصلة الهادية لبناء تصوّر سليم قادر على الوعي بالذات وما تتوافر عليه من إمكانات وقدرات اجتهاديّة وإبداعيّة، وطاقات وموارد روحيّة ومادّيّة، تستدعي يقظة دائمة وبحثًا مستمرًّا عن سبل تفعيلها واستثمارها وفق منهج ينطلق من الواقع ويراعي سننه في التغيير والإصلاح والنهوض؛ للرقي به نحو الأفضل، ويبتعد عن التنظير المثاليّ الهلاميّ المليء بالأحلام والمتمنّيات.

نتحدّث عن الممكن تحقيقه؛ أي مجموع العناصر الممكن تحقّقها في مرحلة معيّنة حين تتوافر الشروط والأسباب لتحقيقها. وبعبارةٍ أخرى، قد يتمّ تفعيل مختلف الإمكانات المتوافر عليها، وقد يتمّ الاقتصار على تفعيل بعضها دونً الآخر؛ وهنا نتحدّث عن إمكانات جزئيّة أو الممكنات المتاحة.